زوجة إمام (٢)

بقيَّة الخبر

قال أبو مُعاوية الضَّرير : وكنتُ في الطريق إلى دار الشَّيخ ، أُروِّىء في الأمر[١] ، وأمتحِنُ مذاهبَ الرَّأي ، وأقلِّبها على وجوهها ، وأنظرُ كيف أحتالُ في تأليف ما تنافر من الشَّيخ وزوجته ؛ فإنَّ الَّذي يَسفِرُ بين رجلٍ وامرأةٍ إنَّما يمشي بفكره بين قلبين ، فهو مُطْفىء نائِرَةٍ[٢] أو مُسْعِرُها ؛ إذ لا يضع بين القلبين إلا حُمقَه ، أو كِياستَه ، وهو أن يردَّ المرأةَ إلى الرأي إلا إذا طاف على وجهها بالضَّحك ، وعلى قلبها بالخَجَل ، وعلى نفسها بالرقَّة . وكان حكيماً في كلِّ ذلك ؛ فإنَّ عقلَ المرأة مع الرَّجل عقلٌ بعيدٌ ، يجيء من وراء نفسها ، من وراء قلبها .

وجعلتُ أنظرُ ما الذي يُفسدُ محلَّ الشَّيخ من زوجته ، ومثَلت بينه وبينها ، فما أخرج لي التفكير ، إلا أن حُسنَ خُلقِه معها دائماً هو الَّذي يستدعي منها سوءَ الخُلقِ أَحياناً ؛ فإنَّ الشَّيخ كما ورد في وصف المؤمن : « هَيِّنٌ لَيِّن كالجمل الأنفِ[٣] »[٤] ، إن قِيدَ انقادَ ، وإن أُنيخ على صخرةٍ استناخ ، والمرأة لا تكون امرأةً حتَّى تطلبَ في الرَّجل أشياءَ : منها أن تحبَّه بأسبابٍ كثيرةٍ من أسباب الحبِّ ، ومنها أن تخافَه بأسبابٍ يسيرةٍ من أسباب الخوف ؛ فإذا هي أحبَّته الحبَّ كلَّه ، ولم تَخَفْ منه شيئاً ، وطال سكونه ، وسكونها ؛ نفرت طبيعتُها نفرةً ، كأنَّها تنخِّيه ، وتذمرهُ[٥] ، ليكون معها رجلاً ، فيُخيفها الخوفَ الَّذي تستكمل به لذَّة حبِّها ؛ إذ كان ضعفُها يحبُّ فيما يحبُّه من الرَّجل أن يَقْسُوَ عليه الرَّجلُ في الوقت بعد الوقت ، لا ليؤذِيه ، ولكن ليُخضِعَه ، والآمر الَّذي لا يُخافُ إذا عُصي أمرُه ، هو الذي لا يُعبأ به إذا أطيع أمرُه .

---

(١) « أروىء في الأمر » : أنظر فيه ، وأتأنى .

(٢) « النائرة » : الغضب . (ع) .

(٣) أي : المأنوف ، ويُسمِّيه العامة (المخزوم) وهو الذي عُقِر أنفُه بالخشاش ؛ فيقاد منه ، فيكون ذلولاً سمحاً . (ع) .

(٤) انظر الحديث في فيض القدير (٦/ ٢٥٧) وضعيف الجامع (٥٩٠٧) .

(٥) « تذمره » : تحضّه ، وتشجّعه .

كأنَّ المرأةَ تحتاج طبيعتها أحياناً إلى مصائبَ خفيفةٍ ، تؤذِي برقَّةٍ ؛ أو تمرُّ بالأذى من غير أن تلمِسَها به ، لتتحرَّكَ في طبيعتها معاني دموعها من غير دموعها ؛ فإن طال ركودُ هذه الطَّبيعةِ ، أوجدتْ هي لنفسها مصائبها الخفيفة ، فكان الزَّوجُ إحداها . . . . . .

وهذا كلُّه غير الجرأة ، أو البذَاءِ فيمن يُبغضن أزواجَهنَّ ، فإنَّ المرأة إذا فرَكتْ[١] زوجَها لمنافرة الطَّبيعة بينها وبينه ؛ مات ضعفها الأنثويُّ ؛ الذي يتمُّ به جمالها ، واستماعُها ، والاستمتاعُ بها ، وتعقَّد بذلك لينها ، أو تصلَّب ، أو استحجَر ، فتكونُ مع الرَّجل بخلاف طبيعتها ، فينقلب سكرها النِّسائيُّ بأنوثتها الجميلةِ عربدةً ، وخِلافاً ، وشرّاً ، وصَخباً ، ويخرجُ كلامها للرَّجل وهو من البغض كأنَّه في صوتين ، لا في صوتٍ واحدٍ ، ولعلَّ هذا هو الَّذي أحسَّه الشَّاعر العربيُّ بفطرته من تلك المرأة الصخَّابة ، الشَّديدةِ الصَّوت ، البادية الغيظ ، فضاعفَ لها في تركيب اللفظ حين وصفها بقوله :

صُلبـــــةِ الصَّيْحـــــةِ صهصَليقُهـــــا[٢]

قال أبو معاوية : واستأذنت على (تلك) ، ودخلتُ بعد أن استوثقت أن عندها بعضَ مَحارمِها ؛ فقلت : أنعم الله مَساءَكِ يا أم محمد ! قالت : وأنت فأنعم الله مساءَك .

فأصغيت للصَّوت ، فإذا هو كالنَّائم قد انتبه يَتمطَّى في استرخاءٍ ؛ وكأنَّها تقبلني به ، وتردُّني معاً ، لا هو خالصٌ للغضب ، ولا خالصٌ للرِّضا .

فقلت : يا أم محمد ! إنِّي جائع لم ألمَّ اليوم بمنزلي ! فقامت ، فقرَّبت ما حضَر ، وقالت : معذِرةً يا أبا معاوية ! فإنَّما هو جُهدُ المُقِلِّ ؛ وليس يعدُو إمساك الرَّمَق . فقلت : إنَّ الجوعانَ غير الشَّهوان ، والمؤمن يأكل في مِعًى واحدٍ[٣] ، ولم يخلق الله قمحاً للملوك ، وقمحاً غيره للفقراء .

---

(١) « فركت » : أبغضت ، وكرهت .

(٢) هذا من عجائب اللغة العربية ، إذا زاد المعنى زادوا له في اللفظ ، ورواية لسان العرب : « (شديدة) الصيحة » ، وليست بشيء فليصحِّحها مَنْ يقتني اللسان من القراء . (ع) .

(٣) في بعض الأثر : « المؤمن يأكل في معىً واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » . وهذا =

ثم سمَّيت ، ومددت يدي أتحسَّسُ ما على الطَّبق ، فإذا كِسَرٌ من الخبز ، معها شيءٌ من الجزَر المسلوق ، فيه قليلٌ من الخلِّ والزَّيت ، فقلت في نفسي : هذا بعض أسباب الشَّرِّ ! وما كان بي الجوع ، ولا سَدَّه ، غير أنِّي أردت أن أعرف حاضرَ الرِّزقِ في دار الشَّيخ ، فإن مثل هذه القلَّة في طعام الرَّجل هي عند المرأة قلَّةٌ من الرَّجل نفسه ، وكلُّ ما تفقِده من حاجاتها ، وشهواتِ نفسِها ، فهو عندها فقرٌ بمعنيين : أحدهما من الأشياء ، والآخر من الرَّجل ، كلَّما أكثر الرَّجل من إتحافها ؛ كثرَ عندها ، وإن أقلَّ ؛ قلَّ ، إنَّما خُلقت المرأةُ بطناً يلد ، فبطنها هو أكبر حقيقتها ، وهذه غايتها ، وغاية الحكمةِ فيها ، لا جرَمَ كان لها في عقلها مَعدةٌ معنويةٌ ، وليس حبُّها للحُلِيِّ ، والثِّياب ، والزِّينة ، والمال ، وطماحها إليها ، واستهلاكها في الحرص عليها ، والاستشراف لها ؛ إلا مظهراً من حكم البطنِ ، وسلطانه ؛ فذلك كلُّه إذا حقَّقته في الرَّجل ؛ لم تجده عنده إلا من أسباب القوَّة ، والسُّلطة ، وكان فقده من ذرائع الضَّعف والقِلَّة ، فإذا حقَّقته في المرأة ؛ ألفيتَه عندها من معاني الشِّبع ، والبَطر ، وكان فقده عندها كأنَّه فنٌّ من الجوع ، وكانت شهواتها له كالقَرم إلى اللَّحم[1] عند من حُرِمَ اللَّحم ، وهذا بعض الفرق بين الرِّجال والنِّساء ، فلن يكون عقل المرأة كعقل الرِّجال ، لمكان الزِّيادة في معانيها « البطنيَّة » فحُسِبت لها الزيادة هاهنا بالنقص هناك ، فهنَّ ناقصات عقلٍ ودين كما ورد في الحديث . أمَّا نقص العقل فهذه علَّته ؛ وأمَّا الدِّين فلغلبة تلك المعاني على طبيعتها ، كما تغلب على عقلها ، **فليس نقص الدِّين في المرأة نقصاً في اليقين ، أو الإيمان ، فإنَّها في هذين أقوى من الرَّجل ؛ وإنَّما ذاك هو النَّقص في المعاني الشَّديدة التي لا يكمل الدِّين إلا بها : معاني الجوع من نعيم الدُّنيا ، وزينتها ، وامتداد العين إليها ، واستشراف النَّفس لها ؛ فإنَّ المرأة في هذا أقلُّ من الرَّجل ، وهي لهذه العلَّة ما برحتْ تؤثرُ دائماً جمال الظَّاهر وزينته في الرِّجال ، والأشياء ؛ دون النَّظر إلى ما وراء ذلك من حقيقة المنفعة .**

* * *

= الحديث رمز عجيب لبهيميَّة مَنْ لا يرى الدنيا إلا الدنيا فقط . (ع) .
قلتُ : الحديث رواه البخاري (٥٣٩٦) ومسلم (٢٠٦٢) .

(١) « القرم إلى اللحم » : قَرِم الرجلُ إلى اللحم : اشتدت شهوتُه إليه .

قال أبو معاوية : وأريتها أنِّي جائعٌ ، فنهشْتُ[1] نهش الأعرابيِّ ؛ كيلا تفطن إلى ما أردت من زعم الجوع ؛ ثمَّ أحببت أن أستدْعِيَ كلامها ، وأستميلها ؛ لأن تضحك ، وتسَرَّ ، فأغيِّر بذلك ما في نفسها ، فيجد كلامي إلى نفسها مذهباً ، فقلت : يا أم محمد ! قد تحرَّمت[2] بطعامكِ ، ووجبَ حقِّي عليك ؛ فأشيري عليَّ برأيك فما أستصلح به زوجتي ، فإنَّها غاضبةٌ عليَّ ، وهي تقول لي : والله ما يُقيم الفأر في بيتك إلا لحبِّ الوطن . . . وإلا فهو يَسترزق من بيوت الجيران !

قالت : وقد أعْدَمَت حتَّى من كِسَر الخبز ، والجزر المسلوق ؟ اللهَ منك ! لقد استأصلتها من جذرها ؛ إنَّ في أمراض النِّساء الحمى التي اسمها الحمَّى ، والحمَّى الَّتي اسمها الزَّوج . . .

فقلت : اللهَ اللهَ يا أم محمد ! لقد أَيسرْتِ بعدنا ، حتَّى كأنَّ الخبز ، والجزرَ المسلوق شيءٌ قليل عندك من فرط ما يتيسَّر ، أوَ ما علمت أنَّ رزق الصَّالحين كالصَّالحين أنفسِهم ، يصوم عن أصحابه اليوم ، واليومين . . وكأنَّكِ ما سمعت شيئاً من أخبار أمَّهات المؤمنين ، أزواجِ رسول الله ﷺ ، ونساء أصحابه رضوان الله عليهم ، فما خير امرأة مسلمةٍ لا تكون بأدبها ، وخلقها الإسلاميِّ كأنَّها بنت إحدى أمهات المؤمنين ؟

أفرأيتِ لو كنتِ فاطمة بنت محمَّد ﷺ ، أفكان ينقلك هذا إلى أحسنَ ممَّا أنتِ فيه من العيش ؟ وهل كانت فاطمة بنت ملك تعيش في أحلام نفسها ، أو بنت نبيٍّ تعيش في حقائق نفسها العظيمة ؟

تقولين : إنَّني استأصلت أمَّ معاوية من جُذورها ، فما أمُّ معاوية ، وما جذورها ؟ أهي خيرٌ من أسماءَ بنت أبي بكرٍ صاحب رسول الله ﷺ ؛ وقد قالت عن زوجها البطل العظيم : تزوَّجني ؛ وما له في الأرض من مالٍ ، ولا مملوكٍ ، ولا شيءٍ غير فرَسِه ، وناضحهِ[3] ، فكنت أعْلف فرسه ، وأكفيه مؤنته ، وأسوسُه ، وأدق النَّوى لناضحه ، وأعلفه ، وأستقي الماء ، وأخْرز غربه[4] ، وأعجن ، وكنت

---

(١) « نهشت » : نَهَشَ الشيءَ : تناوله بأسنانه وأضراسه جميعها .

(٢) « تحرمت » : تمنَّعتُ ، واختَميتُ .

(٣) « النواضح » : الإبلُ يُسْتَقَى عليها . واحدها : ناضح . وسائقها : النَّضَّاح . (ع) .

(٤) « الغَرْبُ » : الدلو العظيمة تتخذ من جِلْد الثور . (ع) .

أنقل النَّوى على رأسي من ثلثي فرسخ ، حتى أرسل إليَّ أبو بكر بجاريةٍ ، فكفتني سياسة الفرس ، فكأنَّما أعتقني !

هكذا ينبغي لنساء المسلمين في الصَّبر ، والإباء ، والقوَّة ، والكبرياء بالنَّفس على الحياة كائنةً ما كانت ، والرِّضا ، والقناعة ، ومؤازرة الزَّوج ، وطاعتِه ، واعتبار ما لهنَّ عند الله ، لا ما لهنَّ عند الرَّجل ، وبذلك يرتفعْنَ على نساء الملوك في أنفسهنَّ ، وتكون المرأة منهنَّ ، وما في دارها شيءٌ ، وعندها أنَّ في دارها الجنَّة ؛ وهل الإسلام إلا هذه الرُّوح السَّماويَّة ؛ الَّتي لا تهزمها الأرض أبداً ، ولا تذِلُّها أبداً ما دام يأسها وطمعُها معلَّقين بأعمال النَّفس في الدُّنيا ، لا بشهوات الجسم من الدُّنيا ؟

هل الرَّجل المسلم الصَّحيح الإسلام إلا مثل الحرب يثور حولها غبارها ، ويكون معها الشَّظف ، والبأس ، والقوَّة ، والاحتمال ، والصَّبر ؛ إذ كان مفروضاً على المسلم أن يكون القوَّة الإنسانيَّة ، لا الضَّعف ، وأن يكون اليقين الإنسانيَّ ، لا الشَّكَّ ، وأن يكون الحقَّ في هذه الحياة ، لا الباطل ؟

وهل امرأة المسلم إلا تلك المفروض عليها أن تمدَّ هذه الحربَ بأبطالها ، وعَتادِ أبطالها ، وأخلاقِ أبطالها ، ثمَّ ألا تكون دائماً إلا من وراء أبطالها ؟ وكيف تلد البطلَ إذا كان في أخلاقها الضَّعةُ ، والمطامع الذَّليلة ، والضَّجرُ ، والكسل ، والبلادة ؟ ألا إنَّ المرأة كالدَّار المبنيَّة : لا يَسهل تغييرُ حدودها إلا إذا كانت خراباً !

فاعترضتْه امرأةُ الشَّيخ ، وقالت : وهل بأسٌ بالدَّار إذا وسِّعتْ حدودها من ضِيقٍ ؟ أتكون الدَّار في هذا إلى نقصِها ، أو تمامها ؟

قال أبو معاوية : فكدت أنقطعُ في يدها ، وأحببت أن أمْضيَ في استمالتها ، فتركتها هُنيهةً[1] ظافرةً بي ، وأريتها أنَّها شدَّتني وَثاقاً ، وأطرقتُ كالمفكِّر ، ثمَّ قلت لها : إنما أحدِّثك عن أم معاويةَ لأبي معاوية ، وتلك دارٌ لا تملك غيرَ أحجارها ، وأرضها ، فبأيِّ شيءٍ تتَّسع ؟

زعموا : أنَّه كان رجلٌ عاملٌ يملك دُوَيْرةً قد التصقت بها مساكنُ جيرانه ، وكانت له زوجةٌ حمقاءُ ما تزال ضيقة النَّفس بالدَّار وصِغَرها ، كأنَّ في البناء بناءً

---

(١) « هُنيهة » : هي القليل من الزمان .

حول قلبها ، وكانا فقيرين ، كأمِّ معاوية ، وأبي معاوية ، فقالت له يوماً : أيُّها الرَّجل ، ألا توسِّع دارَك هذه ، ليعلم الناس أنَّك أيسرتَ ، وذهب عنك الضرُّ ، والفقر ؟ قال : فبماذا أوسِّعها ، وما أملك شيئاً ؟ أأمسك بيميني حائطاً ، وبشمالي حائطاً ، فأمدُّهما أباعِدُ بينهما . . ؟ وهبيني ملكت التَّوسِعةَ ، ونفقتها ، فكيف لي بدور الجيران ، وهي ملاصقةٌ لنا بَيت بَيت ؟

قالت الحمقاء : فإنَّنا لا نريد إلا أن يَتعالم النَّاس أنَّنا أيسرنا : فاهدِم أنت الدَّار ، فإنَّهم سيقولون : لولا أنهم وجدوا ، واتَّسعوا ، وأصبح المال في يدهم ؛ لما هدموا . . . !

قال أبو معاوية : وغاظتني زوجةُ الشَّيخ ، فلم أسمع لها هَمسة من الضَّحكِ لمثل الحمقاء ، وما اخترعتُه إلا من أجلها ، كأنَّها تريد أن يذهبَ عملي باطلاً ؛ فقلت : وهل تتَّسع أمُّ معاوية من فقرها إلا كما اتَّسع ذلك الأعرابيُّ في صلاحه ؟

قالت : وما خبرُ الأعرابيِّ ؟

قلت : دخل علينا المسجدَ يوماً أعرابيٌّ جاء من البادية ، وقام يصلِّي ، فأطال القيامَ ، والناس يرمقونه[1] ، ثم جعلوا يتعجَّبون منه ، ثمَّ رفعوا أصواتهم يمدحونه ، ويصفونه بالصَّلاح ، فقطع الأعرابيُّ صلاته ، وقال لهم : مع هذا : إنِّي صائمٌ . . !

قال أبو معاوية : فما تمالكت أن ضحِكَتْ ، وسمعتُ صوت نفسها ، وميَّزتُ فيه الرِّضا مقبلاً على الصُّلح الَّذي أتسبَّبُ له . ثُمَّ قلت :

وإذا ضاقت الدَّار فلمَ لا تتسع النَّفسُ الَّتي فيها ؟ المرأةُ وحدها هي الجوُّ الإنسانيُّ لدار زوجها ، فواحدةٌ تدخلُ الدَّار فتجعل فيها الرَّوضة ناضرةً ، مُتَرَوِّحةً ، باسمةً ، وإن كانت الدَّارُ قحطةً ، مسحوتةً[2] ، ليس فيها كبيرُ شيء ، وامرأةٌ تدخل الدَّارَ فتجعل فيها مثل الصَّحراء برمالها ، وقيظها ، وعواصفها ، وإن كانت الدَّار في رياشها ، ومتاعها كالجنَّة السُّندُسيَّة ، وواحدةٌ تجعل الدَّار هي القبر . والمرأةُ حقُّ المرأة هي الَّتي تترك قلبها في جميع أحواله على طبيعته الإنسانيَّة ، فلا تجعلُ هذا

(١) « يرمقونه » : رمقه : نَظَر إليه .
(٢) « مسحوتة » : سَحَتَ الشيءَ : استأصله .

القلبَ لزوجها من جنس ما هي فيه من عيشة : مرَّةً ذهباً ، ومرَّةً فضَّةً ، ومرَّةً نحاساً ، أو خشباً ، أو تراباً ، فإنَّما تكون المرأة مع رجلها من أجْله ، ومن أجلِ الأمَّةِ معاً ، فعليها حقَّان ، لا حقٌّ واحدٌ ، أصغرهما كبيرٌ ، ومن ثمَّ فقد وجب عليها إذا تزوَّجت أن تستشعرَ الذَّاتَ الكبيرة مع ذاتها ، فإن أغضبها الرَّجلُ بهفوةٍ منه ؛ تجافت له عنها ، وصفحت من أجل نظام الجماعة الكبرى ، وعليها أن تحكم حينئذٍ بطبيعة الأمَّة ، لا بطبيعة نفسها ، وهي طبيعةٌ تأبى التفرُّق ، والانفراد ، وتقومُ على الواجب ، وتضاعفُ هذا الواجبَ على المرأة بخاصَّةٍ .

والإسلامُ يضعُ الأمَّةَ ممثلةً في النَّسل بين كلِّ رجلٍ وامرأته ، ويُوجبُ هذا المعنى إيجاباً ، ليكونَ في الرَّجل وامرأته شيءٌ غير الذُّكورة ، والأنوثة يجمعهما ، ويقيِّد أحدَهما بالآخر ، ويضع في بهيميَّتهما ـ الَّتي من طبيعتها أن تتَّفق ، وتختلف ـ إنسانيةً من طبيعتها أن تتَّفق ، ولا تختلف .

ومتى كان الدِّينُ بين كلِّ زوجٍ وزوجته ، فمهما اختلفا ، وتدابَرا ، وتعقَّدت نفساهما ؛ فإنَّ كلَّ عقدةٍ لا تجيء إلا ومعها طريقةُ حلِّها : ولن يُشادَّ الدينَ أحد إلا غَلبه ، وهو اليسْرُ ، والمساهَلةُ ، والرَّحمةُ ، والمغفرةُ ، ولينُ القلب وخشيةُ الله ؛ وهو العهدُ ، والوفاء ، والكرمُ ، والمؤاخاةُ ، والإنسانيَّة ، وهو اتِّساعُ الذَّات ، وارتفاعُها فوق كل ما تكون به منحطةً ، أو ضيقةً .

(قال أبو معاوية) : فحقُّ الرَّجلِ المسلم على امرأته المسلمةِ ، هو حقٌّ من الله ، ثمَّ من الأمَّة ، ثمَّ من الرَّجل نفسه ، ثمَّ من لطف المرأة ، وكرمها ، ثمَّ ممَّا بينهما معاً ، وليس عجيباً بعد هذا ما روينا عن النبي ﷺ : « لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحد ، لأمرتُ النِّساء أن يسجدْنَ لأزواجهنَّ ، لِما جعل الله لهم عليهنَّ من الحقِّ »(١) .

وهذه عائشة أمُّ المؤمنين قالت : يا معشرَ النساء ! لو تَعلمْنَ بحقِّ أزواجِكنَّ عليكنَّ ؛ لجعلت المرأةُ منكنَّ تمسحُ الغبار عن قدَمَيْ زوجها بحُرِّ وجهِها .

* * *

(قال أبو معاوية) : وكان الشَّيخ قد استبطأني وقد تركتُه في فِناء الدَّار ، وكنت

---

(١) رواه الترمذي (١١٥٩) عن أبي هريرة ، والحاكم (٤/ ١٧٢) عن معاذ .

رَدَّدْتُ في نفسي كلاماً طويلاً عن فروته الحقيرة الَّتي يلبسها ، فيكون فيها من بَذاذَة الهيئة كالأجير الذي لم يجد من يستأجره ، فظهرَ الجوعُ حتى على ثيابه . . . وقد مرَّ بالشَّيخ رجلٌ من المسَوِّدة[1] وكان الشيخ في فروته هذه جالساً في موضعٍ فيه خليج من المطر ، فجاءه المسوِّد فقال : قم فاعبُر بي هذا الخليج ؛ وجذَبه بيده ، فأقامه ، وركبه ، والشَّيخ يضحك .

وكنت أريد أن أقول لأمِّ محمد : إنَّ الصَّحوَ في السَّماء لا يكون فقراً في السَّماء ، وإنَّ فروة الشَّيخ تعرف الشيخ أكثر من زوجته ، وإنَّ المؤمن في لذَّات الدُّنيا ، كالرَّجل الذي يضع قدميه في الطِّين ليمشي ، أكبرُ همِّه ألا يجاوزَ الطِّينُ قدميه .

ولكن صوت الشَّيخ ارتفع : هل عليكم إذْن ؟

قال معاوية : فبَدرْتُ ، وقلت : باسمِ الله ادخل . كأني أنا الزَّوجة . . . وسمعتُ همساً من الضَّحك ؛ ودخل أبو محمد فجلس إلى جانبي ؛ وغمزني في ظهري غمزةً ؛ فقلت : يا أم محمَّد ! إنَّ شيخك في ورَعه ، وزهده ليُشْبعه ما يُشبعُ الهُدهُد ، ويُرويه ما يروي العُصفور ، ولئن كان متهدِّماً فإنَّه جَبَل علم ، « ولا تنظري إلى عَمَش عينيه[2] ، وحُموشةِ ساقَيه[3] ، فإنَّه إمامٌ وله قَدْرٌ »[4] .

فصاح الشَّيخ : قم أخزاك الله ! ما أردتَ إلا أن تعرِّفها عيوبي !

قال أبو معاوية : ولكنِّي لم أقم ، بل قامت زوجة الشَّيخ ، فقبَّلت يده .

* * *

(١) الذين يلبسون السواد ، وهم شيعةُ العباسيين . (ع) .

(٢) « عمش عينيه » : عَمِشَتْ عينهُ : ضَعُفَ بَصَرُها مع سيلان دمعها في أكثر الأوقات .

(٣) « حموشة ساقيه » : حَمِش حَمْشاً : كان دقيق الساقين .

(٤) ما بين القوسين هو الوارد في التاريخ ، وعليه بنينا هذه القصة . (ع) .